وجعل ضرغامه بازيا الصيده، واستقل على اريكته، استقلال الظليم على تريكته، حاسر الهامة، متنقبا بالنجاة والشهامة، مستظهرا باولي الجهالة والجهامة، وساءت في محاولة عدو الدين سيرته، ولما حصحص الحق انكشفت سريرته، وارتاب الجينه المستور جيرته، وفغر عليه طاغية الروم فمه، فالتقمه، ومد عليه الصليب ذراعه، فراعه، وشد الكفر عليه يده، فما عضده الله ولا ايده، وتخرمت حتى ثغور الاسلام بعد انتظامها، الية باهتضامها، وغصت باعلاج عباد الله وعظامها، ظهور اوضامها، وولهت السنة والجماعة، واشتغلت من البحر الطاعة، واشتدت الجاعة، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة، واجزنا البحر نتهادى جهتنا تتقارب تيسيرا، ورياحه لا تعرف في غير وجهتنا مسيرا، وكان ماءه ذوب لجين اكسيرا، ونعم ما ينفذ منا الرعب ويتقدمنا الدعا، وتجاجي بنا الاشارة وتخفرنا الاستدعا، واقصر الطاغية عن البلاد بعد ان ترك ثغورها مهتومه، والاخافة عليها محتومه، وطوالعها مقعوصة وكانت بنا مختومه، واظهرت الخائن الصيحة فاختبل، وظهر تهوره الذي علىه جبل، نجم اوباشه السفلة، واوشابه، وبهرجه الذي غشي بالمحض وشابه، وعدا الى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة، والمعاقل العزيزة، فلا بها المناطق، واستوعب الصامت والناطق، والوشح والقراطق، واحتمل عدد الحرب والزينة، وخرج ليلا عن المدينة، وانقضت اراوه القايلة، ونعامته الشايلة، ودولته بغية الزايلة، الا يقصد طاغية الروم بقضه وقضيضه، واوجيه وحضيضه، وطوله وعريضه، من غير عهد اقتضى وثيقته، ولا امر عرف حقيقته، الا ما امل اشتراطه من تبديل الكلمة، واستيصال الامة المسلمة، فلم يكن الا ان تحصل في قبضته، ودنا من مضجع ربضته، واستشار مغواه فأمره، وحكم الحيلة في جناية غدره، وشهره ببلده، وتولى قتله بيده، والحق جميع من امله في غيه، وظاهره على سوء سعيه، ووجه الينا برؤوسهم فنصبت بسور بلد رصدها، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها، واصبحت عبرة المعتبرين، واية للمستبصرين، واحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، وعدنا الى اريكة ملكنا كما رجع القمر الى بيته، بعد كينه وكيته، او العقد الى الجيد، بعد انتثار فريده، او الطائر الى وكره، بعد ما تغلب غول الشرك ومكره، ينظر الناس الينا بعيون لم ترمد غيبنا من محيا زحمه، ولا اطلت عليها بعدنا غمامة رحمة، ولا بانت للسياسة في ذمة، ولا ركنت لدين ولا همة، فطوينا بساط العتاب طي الكتاب، وعاجلنا سطور المواخذة بالاضطراب، وآنسنا نفوس اولي الاقتراب بالاقتراب، وسهلنا الوصول الينا، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا، فلا انسا لو اتفقنا آثار ذلك من استدراك ذم ورسوخ قدم، واستمتاع بوجود بعد عدم، فسبحان الذي يمحص ليثيب، ويأمر بالدعا ليجيب، وينبه من الغفلة ويهيب، ويجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب، ورأينا ان مطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسبيبا للفاتحة المعتمد، وتمهيدا لهذه الالاة المجددة، فاجلنا الاقطار مما تنفقد الملوك على اسمارها، وترقم ببدايعه كلل اقمارها، وتستفيد منه حسن السير، والامان من الغير، وتستعين على الدهر بالتجارب، وتستدل بالشاهد على الغايب، وبلادكم ينبوع الخير واهله، ورواق الاسلام الذي ياوي قريبه وبعيده الى ظله، ومطلع نور الرسالة وافق رحمة المسالة، منه تقدم علينا الكواكب تغرب اباط افلاكها، وتتخلل مداريها المذهبة غدا بر احلاكها، وتستطلع البدور، ثم يدعوها الى المغرب الحدود، وتطلع الشمس متجردة من كمايم ليلها، متهادية في ذكا سبلها لم تنسحب الى الغروب فضل ذيلها، ومن تلقايكم ورد العلم والعمل، وادعي الحلل، فنحن نستوهب من مظان الاجابة لديكم دعا يقوم لنا مقام المدد، ويعدل منه الشيء بالمال والعدد، فدعا المومن بظهر الغيب ماضية ماورد واياه سبحانه نسال ان يدفع عنا وعنكم دعاوي الفتن، وغوايل المحن، ويحملنا على سنن السنن، ويلبسنا من تقواه اوقى الجنن، وهو سبحانه وتعالى يصل لابويكم ما المستقبل الذي قاضي القضاة رسومه، فتكتب حقوقه وترك خصومه، ولا تخلفه الايام ولا تسومه، بفضل الله وعزته، وكرمه ومنته، والسلام الكريم الطيب المبارك بدا بعد عود، ووجود اثر وجود، ورحمة الله تعالى وبركاته، انتهى، وللسان الدين بن الخطيب رحمه الله عن سلطانه المذكور كتاب آخر في صنع الحادثة الى كبير الموحدين ابي محمد عبد الله بن تافراجين ولعلنا نذكره ان شاء الله في الباب الخامس من هذا القسم عند تعرضنا لبعض نثر لسان الدين رحمه الله تعالى وقد ساق هذه القضية قاضي القضاة الشهير الكبير ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي رحمه الله تعالى في تاريخه الكبير في ترجمة السلطان الشهير ابي سالم بن السلطان ابي الحسن المريني صاحب المغرب بما نصه الخبر عن خلع ابن الاحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان لما هلك السلطان ابو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعماية ونصب ابنه محمد للامر واستبد عليه رضوان مولى ابيه وكان قد رشح ابنه الاصغر اسمعيل بما القي عليه ومن المرانه من محبته فلما عدلوا بالامر عنه حجبوه ببعض قصورهم وكان لاصهر من ابن عمه محمد بن اسمعيل ابن الرئيس ابي سعيد فكان يدعو سرا الى القيام بامره حتى امكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان الى بعض منتزهاته برياضه فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في اوشاب جمعهم من الطغام لتوثبه وعمد الى دار الحاجب رضوان فاقتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته وقربوا الى اسمعيل فرسه وركب فادخلوه القصر واعلنوا ببيعته وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكان منتزهه فلحق بوادي آش وغدا الخاصة والعامة على اسمعيل فبايعوه واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لاشهر من بيعته واستقل بسلطان الاندلس ولما لحق السلطان ابو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان واتصل الخبر بالمولى السلطان ابي سالم استعظم لمهلك رضوان وخلع ربيبا لما سلف له في جوارهم وازعج لحينه ابا القاسم الشريف من اهل مجلسه لاستقدامه فوصل الى الاندلس وعقد مع اهل الدولة على اجازة المخلوع من وادي آش الى المغرب واطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب ابا عبد الله بن

الخطيب

الخطيب كانوا اعتقلوه لاول امرهم لما كان رديفا للحاجب رضوان وركنا لدولة المخلوع فاوصى المولى ابو سالم اليهم باطلاقه فاطلقوه ولحق مع الرسول ابي القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادي آش للاجازة الى المغرب واجاز لذي القعدة من سنته واقدم على السلطان بفاس واحتفل لقدومه وركب للقايه ودخل به الى مجلس ملكه وقد احتفل ترتيبه وغص بالمشيخة والعلية ووقف وزيره ابن الخطيب فانشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ويستحثه لمظاهرته على امره واستعطف واسترحم بما ابكى الناس شفقة له ورحمة ثم سرد ابن خلدون القصيدة وقد تقدمت ثم قال بعد ما صورته ثم انفض المجلس وانصرف ابن الاحمر الى نزله وقد فرشت له القصور وقربت الجياد بالمراكب الذهبية وبعث اليه بالكسى الفاخرة ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنايع وحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والرجل ولم يفقد من القاب ملكه الا الآلة ادبا مع السلطان واستقر في جملته الى ان كان من لحاقه بالاندلس وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون في هذه الواقعة وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق في اللمحة البدرية اذ قال فيها ان الثورة عليهم كانت ليلة ثمان وعشرين من رمضان وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه والخطب سهل وقال في اللمحة ان انصراف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر وقال ابن خلدون في ذي القعدة ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة ورواية ابن الخطيب التي ذكرها هي من حر كلامه وعن شعره على انه كلام قد ادمج فيها المطلوب في ذلك الوقت بابدع لفظ واحسن عبارة في ذلك المحفل العظيم ولم تزل تسمع في المذاكرات المغرب اذ لما انتهى فيها الى قوله فقد انجح المسعى وقد ربح المتجر قال له بعض من حضر ولعله اراد الغض منه احسنت يا وزير فيما قلت وفي وصف الحال والسلطان نصره الله يبقى عليك شي وهو ان تذكر قرابة السلطان مولينا بني مرين وهم من هم ولا ينبغي السكوت عنهم فارتجل ابن الخطيب حينئذ قوله ومن دون ما تبغيه الماجد حتى تخلص لمدح بني مرين اقارب السلطان بما امر به ورداه ثم قال بعد ذلك معتذرا مولاي فاتت نكرى الاخرة وهذا انصح ابلغ مما وقع لابي تمام في سينيته حيث قال لا تنكروا ضربي له البيتين لان ابا تمام ارتجل بيتين فقط ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتا مع ما هو عليه من الحرج من الوطن وذهاب الجاه والمال فاين الحال من الحال وقد ذكر ابن خلدون رحمه الله في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر ولنذكره وان سبق بعضه لاشتماله على منشا الوزير لسان الدين وجملة من احواله الى قريب من مهلكه فنقول قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبد الله والد لسان الدين وانه انتقل من لوشة الى غرناطة واستخدم لملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام ما محصله ونشا ابنه محمد هذا يعني لسان الدين ابن الخطيب بغرناطة وقرا وتادب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل واخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب وانتحل الادب واخذ عن اشياخه وامتلا من حوك اللسان نظمه ونثره مع انتقا الجيد منه ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما وامتدح السلطان ابا الحجاج من ملوك بني الاحمر لعصره وملا الدنيا بمدايحه وانتشرت في الافاق فرقاه السلطان الى خدمته واثبته في ديوان الكتاب ببابه مرووسا بابي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وساير العلوم الادبية وكاتب السلطان بغرناطة من لدن ايام محمد المخلوع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب ببابه مثناه بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك وصدرت عنه غرايب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة ثم داخل السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات فجمع لها اموالا وبلغ به في المخالصة الى حيث لم يبلغ احد ممن قبله وسفر عنه الى السلطان ابي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزيا بابيه السلطان ابي الحسن فجلى في اغراضه سفارته ثم هلك السلطان ابو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعماية عدا عليه بعض الزعانف في سجوده للصلاة وطعنه فاشواه وفاظ لوقته وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه اشلا وبويع ابنه محمد لوقته وقام بامره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الاصاغر من ملوكهم واستبد بالدولة وافرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لابيه رديفا لرضوان في امره ومشاركا في استبداده معه فجرت الدولة على احسن حال واقوم طريقة ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا الى السلطان ابي عنان مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الاندلس وفقهايها واستاذن في انشاد شعر قدمه بين يدي نجواه فاذن له وانشد وهو قايم

خليفة الله ساعد القدر • علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته • ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النايبات بدر دجى • لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرا بارض اندلس • لولاك ما اوطنوا ولا عمروا
وجملة الامر انه وطن • في غير علياك ما له وطر
ومن به مذ وصلت حبلهم • ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد اهمتهم بانفسهم • فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الابيات واذن له في الجلوس وقال له قبل ان يجلس ما ترجع اليهم الا بجميع طلباتهم ثم اثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه وقال شيخنا القاضي ابو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا ومكثت دولتهم هذه بالاندلس خمس سنين ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده الرئيس ابي سعيد وتحين خروج السلطان الى متنزهه خارج الحمراء وتسور دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضوانا في بيته فقتله ونصب للملك اسمعيل بن السلطان ابي الحجاج بما كان صهره على شقيقته وكان معتقلا بالحمراء فاخرجه وبايع له وقام بامره مستبدا عليه واحس السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان فركب ناجيا الى وادي آش وضبطها وبعث بالخبر الى السلطان ابي سالم اثر ما استولى على ملك ابايه بالمغرب وقد كان مثواه ايام اخيه ابي عنان عندهم بالاندلس واعتقل الرئيس القايم بالدولة

King Saud University
Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)